موسى بن نصير

الفاتح العظيم

بقلم: مأمون غريب

دار المعارف

الناشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . م . ع .

« ليس أخو الحرب إلا من اكتحل السهر .. وأحسن النظر .. وخاض الغُمر .. وسَمتْ به همَّته .. ولم يرض بالدون من المغنم لينجو ويسلم ..

إن كل من كان قبلى .. كان يعمد إلى العدو الأقصى .. ويترك عدوًّا منه أدنى .. ينتهز منه الفرصة .. ويدل منه على العورة ..

وايم الله .. لا أريم هذه القلاع والجبال الممتنعة .. حتى يضع الله أرفعها ، ويذل أمنعها ، ويفتحها على المسلمين بعضها أو جميعها ، أو يحكم الله لى وهو خير الحاكمين ! »

[من خطبة موسى بن نصير حين وُلِّى أفريقيا]

مقدمة

هناك بعض الأبطال الذين غيروا مسار التاريخ الإنسانى كله ، ورسموا خريطة جديدة للعالم ، وبالتالى تركوا بصمات على الحياة تظل ما بقيت الحياة .

ومن هذه الشخصيات التى لعبت دورًا خطيرًا جدًّا فى نشر الإسلام : موسى بن نصير .. هذا الرجل الذى استطاع أن يثبت دعائم الإسلام فى الشمال الأفريقى كله ، كما أنه هو الذى خطط لفتح الأندلس ، وشارك فيه مشاركة إيجابية ، حتى أن المؤرخين يقولون : إنه هو الذى حسم الفتح الإسلامى فى غرب أوربا .

ويقول عنه الجاحظ فى كتابه « البرصان والعرجان والعميان والحولان » : ومن العرجان من أصحاب الفتوح والزحوف « موسى بن نصير » .. ثم قال :

— رأى الوليد بن عبد الملك فى المنام ، أن رجلا من أهل الأندلس أعرج يكنى أبا عبد الرحمن ، من أهل الجنة ، يفتح الله على يديه المغرب .

فكتب إليه موسى بن نصير :

— أقام الله عينك يا أمير المؤمنين ..أنا أبو عبد الرحمن .. وأنا موسى بن نصير .. وأنا أعرج .. وأنا بالأندلس .

ويقول معجم البلدان : إن موسى ولد أعرج ، ولكن هذا العرج الذى ولد به موسى بن نصير لم يكن له أثر سيئ على حياته الخاصة ، فلم يكن مقعدًا ، ولا حالت عاهته أن يكون واحدًا من أعظم أبطال التاريخ قاطبة ، بل إن هذه العاهة – أمام وهج فتوحاته وانتصاراته ، وسلوكه السياسى والاجتماعى ، وتربيته أبناءه تربية جعلتهم من أعلام عصرهم – جعل معظم المؤرخين لا يذكرونها ولا يشيرون إليها كثيرًا .. ولكنهم ركزوا على طفولته التى ظهر فيها ولعه بسيرة رسول الله ﷺ ، وأبطال الفتوحات الإسلامية فى عهد الراشدين .

كما أظهروا نبوغه المبكر ، وحفظه للجيد من الشعر ، وإجادته الحوار والنقاش ، ويكفى أن نعرف أن الرواة أجمعوا على أنه لم يهزم فى معركة قط ، برغم كثرة المعارك والحروب التى خاض غمارها ، وكأنه أراد أن يكون مثلاً كريمًا للعرجان يفعل ما لا يقدر عليه الأصحاء ..

إن ذكر موسى بن نصير .. يذكرنا دائمًا بالهمة العالية ، والعزيمة الجبارة التى لا تعرف الهزيمة .. ومن هنا فقد حقق المستحيل ..

* * *

حياتـــه

ولد موسى بن نصير فى سنة ١٩ هـ ، فى خلافة الفاروق عمر بن الخطاب بالحجاز .. وكان والده ينتسب إلى قبيلة بكر بن وائل التى كانت توجد فى أرض الحيرة غربى الفرات .. وهذه القبيلة كانت معروفة بجرأتها وجسارة أبنائها ..

ولد موسى بن نصير فى وقت كان الزحف الإسلامى كاسحًا .. حيث ظهر أبطال الإسلام العظام أمثال : خالد بن الوليد ، وسعد بن أبى وقاص ، وعمرو بن العاص ، وأبو عبيدة عامر بن الجراح .. قادة عظام استطاعوا أن يقودوا جيوش الإسلام لمجابهة أعظم قوى عصرهم : الفرس والرومان ..

وفى أثناء زحف خالد بن الوليد الكاسح للعراق ، وسحقه

لجيوش الفرس فى معركة « عين التمر » . كان من بين الأسرى نصير والد موسى ، أخذ أسيرًا إلى الحجاز حيث أسلم ، وتزوج من فتاة من قبائل لخم اليمنية التى كانت تعيش فى الحجاز .. وأنجب منها ابنه موسى ..

ولم يكن غريبًا أن يشب موسى ، ويتناهى إلى أسماعه الحديث عن أبطال الإسلام : خالد بن الوليد ، عمرو بن العاص ، سعد بن أبى وقاص .. وغيرهم من القادة الذين كانوا حديث الناس .. فى ذلك الزمان .. فشب وهو يتمنى أن يكون مثل هؤلاء القادة .. وساعده ذكاؤه الحاد ، وقدرته على استيعاب ما يسمع أن تتكون ملامح شخصيته منذ الطفولة ، على أسس من المُثُل العليا ، والمبادئ التى يريد أن يحققها فى مستقبل الأيام .. ويساعده والده على تحقيق ذلك بأن شجعه على العلم وحفظ القرآن الكريم ، والجلوس إلى علماء الحجاز من صحابة الرسول عليه الصلاة والسلام والتابعين ، والدرس على أيديهم ..

من كل ذلك تشكلت شخصيته على وعى بما يجرى من أحداث ، وتسلح بسلاح العلم والتقوى ..

لقد شاهد عن قرب صحابة الرسول الذين كانت قدوتهم الرسول الأعظم عليه الصلاة والسلام .. مما جعل لموسى شغفًا

كبيرًا بدراسة سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وعلى الأخص غزواته وخططه ، وتوجيهاته فى الحرب ، وحيطته وحرصه على سرية تحركاته ..

وهناك عامل آخر أثر فى تكوين شخصية موسى بن نصير .. وهو أن أباه كان كذلك أحد القادة لحرس معاوية بن أبى سفيان فى دمشق .. وينتقل موسى مع أبيه حيث يعمل ..ويرقب حكمة أبيه فى المواقف المختلفة عن قرب .. مما جعله يتطلع إلى ما كان عليه أبوه من القيادة الحكيمة .. والمكانة الاجتماعية ..

ولا يمكن أن ننسى كذلك ما كان يشعر به موسى من أثر عاهته التى ولد بها .. فقد كان كثيرًا ما ينظر إلى عيون الناس من حوله .. فيسدد بصره إلى تلك العيون .. ويتذكر عرجه ولكن هذه النظرات ترتد إليه .. مملوءة بالإعجاب .. لا بالإشفاق ..

عاش موسى فى هذه البيئة الجديدة التى غلب عليها طابع السياسة ، ومحاولات معاوية تدعيم مركزه فى الشام ، ثم محاولة انتزاع الخلافة من على بن أبى طالب عقب استشهاد

عثمان بن عفان رضى الله عنهم .. والعجيب أن نصير والد موسى رفض – وهو قائد حرس معاوية – أن يقاتل الإمام على بن أبى طالب ..ومع ذلك فقد أبقى عليه معاوية ولم يعزله عن خدمته ،لثقته المطلقة فيه ..

ويقول الرواة : إن معاوية عاتب « نصير » لعدم خروجه معه قائلا له :

– ما يمنعك من الخروج معى للقتال ، ولى عندك حق لم تكافئنى عليه ولم تجزنى به ؟ !

فأجاب نصير :

– لا يمكننى أن أشكر نعمتك بكفرى بمن هو أولى منك بشكرى .

وعندما سأله معاوية ، عما يقصد بقوله هذا ؟

رد نصير :

– هو الله عز وجل .

وسكت معاوية وترك الرجل وما يؤمن به ، ولم يرغمه على الذهاب معه لقتال على بن أبى طالب .

ومن هذا المشهد ومن غيره من المشاهد التى شاهدها

موسى بن نصير فى بلاط معاوية .. ومعرفته للعبته السياسية تعلَّم الكثير ، وتعلم أن المبادئ لا يجب أن تضيع وسط ضجيج السياسة وأهواء الساسة ..

وبدأ نجم موسى فى التألق عندما لاحظ معاوية مدى ما يتمتع به موسى من ذكاء .. وأنه يمكن أن ينتفع بمواهب هذا الشاب الذى تعلم فنون القتال .. وكان معاوية قد بدأ يكوّن أسطولا بحريًّا ليجابه به أساطيل روما .. حتى يقف موقف الندّ من هذه الدولة الظالمة .

ألحق معاوية موسى فى هذا الأسطول البحرى الجديد فكان عند حسن ظنه به ، فقد استطاع موسى بن نصير أن يحقق انتصارات فى هذا المجال ، ولم تعقه عاهته عن تحقيق أهدافه السامية .. بالرغم من خشونة العمل البحرى .. وكان عمله فى الأسطول بالقرب من السواحل القبرصية بمثابة مران عملى ، نفعه فيما بعد فى معاركه التى غيرت مسار التاريخ فى الشمال الأفريقى .

ومارس الرجل لعبة السياسة أكثر عندما مات معاوية ، ومن بعده يزيد ، ثم تولى الخلافة مروان بن الحكم ، حيث كان قريبًا إلى قلب عبد العزيز بن مروان . [والد عمر بن عبد العزيز] ..

والذى جاء معه إلى مصر ، وأولاه ثقته ، ثم طلب منه الخليفة أن يكون مستشارًا لابنه بشير والى البصرة .. وعندما مات بشير جاء به عبد العزيز مرة أخرى إلى مصر ليأخذ التاريخ الإسلامى على يديه مسارًا آخر .

* * *

فى الشمال الأفريقى

بعد أن انتهت أحداث الفتنة الكبرى ، وآل الحكم لمعاوية نهائيًّا ، قرر الرجل أن يعيد المدّ الإسلامى إلى سالف مجده ، فكون الأسطول البحرى الذى استطاع به أن يقلِّم أظافر الأسطول الرومانى .. وأن تمتد طموحاته إلى مهاجمة القسطنطينية نفسها ، وخاصة بعد أن استولى على جزيرتىْ قبرص ورودس ، وأن تواصل جيوش الإسلام زحفها فى الشمال الإفريقى فى نفس الوقت .. وهذا ما حدث بالفعل ، فقد أرسل عمرو بن العاص ، والى مصر ، عُقبة بن نافع لمواصلة الزحف فى الشمال الأفريقى ، واستعادة ما سبق أن ضاع من العرب .. وبهذا بدأ الزحف الإسلامى من جديد .. ودارت

معارك انتصر فيها المسلمون حينًا ، وانهزموا حينا آخر .. وشهدت أرض الشمال الأفريقى العديد من أبطال الجهاد الإسلامى ، وهم يحاولون فتح هذه الأراضى فينجحون حينًا ، ويرتدون حينًا آخر ..

شهدت هذه الأرض حملات عُقبة بن نافع الذى استطاع أن يصل إلى المحيط الأطلنطى ، ولكنه هزم وهو فى طريق العودة وقتل .. وارتد الزحف الإسلامى مؤقتًا ، وعاد الزحف من جديد حيث كانت حملة زهير بن قيس على تونس ، ولكنه استشهد ، ثم حملة حسان بن نعمان ، وهزيمته على يد كاهنة من البربر .. ثم عودة حسان مرة ثانية ليحقق النصر ..ويمتد الزحف الإسلامى حتى تونس ..

ويظل هذا المد والجذر إلى أن تولى قيادة الجيوش الإسلامية موسى بن نصير ، فانطلق بالجيش الإسلامى ليكتسح هذه الأراضى اكتساحًا ، ولا يقف عند تونس ، بل يواصل زحفه حتى المغرب الأقصى (المغرب الآن) .. وينسحب البيزنطيون نهائيًا من الشمال الأفريقى ، ثم يرى موسى أن الإسلام ليس فتحًا فقط ، ولا هو مجرد ضم أراض لرقعة الإسلام ، ولكن المهم أن يفهم الناس تعاليم الدين الإسلامى .. وأن يقتنعوا

بما فيه من مبادئ وقيم هى منهج حياة ، وأسلوب تربية ، ونظرة واعية إلى الحياة كجسر لعالم الخلود ..

وبدأ الإسلام يدخل فى قلوب البربر ، وبالتالى أصبحوا هم أنفسهم درعًا من دروع الإسلام .. ودخلوا مقاتلين بجانب إخوانهم العرب ، ويبرز منهم قادة عظام من أمثال : طارق بن زياد ، الذى تم على يديه فتح الأندلس بأمر من موسى بن نصير ، الذى أقنع الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك بضرورة ضم هذه البقاع إلى رقعة الإسلام ..

وكان من طموحات موسى بن نصير .. أن يعبر المسلمون مضيق جبل طارق ، ويحتل الأندلس ، ثم جنوب فرنسا ، فإيطاليا ، ويستولى على القسطنطينية ويعود إلى دمشق عاصمة الخلافة الإسلامية عن طريق أوربا ..

خطة طموحة .. لو تحققت لتغير مسار التاريخ تمامًا .. ولأصبحت معظم أوربا الآن تدين بالإسلام ، إلا أن الخليفة الأموى رفض هذا الاقتراح ، وطلب من موسى بن نصير أن يثبت دعائم الإسلام فى البلاد المفتوحة ، ويقنع الناس بالعدل الإسلامى .. وقيم ومبادئ الإسلام حتى يصبحوا

جنودًا من جنود الإسلام .. لأن الإسلام ليس غزوًا ، ولكنه عقيدة وهداية ومبادئ تجعل لحياة الناس معنى وهدفًا وغاية ..

استطاع موسى بن نصير بذكائه الحاد ، وقدرته الإدارية ، وخططه العسكرية الموفقة ، بعد أن ترك قوات فى البلاد المفتوحة تؤمن مكاسب المسلمين أن يحق هذا الحلم العظيم ، فى ضم كل الشمال الأفريقى باستثناء بعض المدن التى كانت خاضعة ليوليان أحد أمراء الروم .. الذى كان يفرض نفوذه على مدينة سبتة أيضًا .

وقد ولّى موسى بن نصير أحد قادته من البربر ، وهو طارق بن زياد على مدينة طنجة ، مما دفع البربر إلى حب سياسته ، والإعجاب بحنكته السياسية ، إذ ولى أحد البربر حكم هذه المدينة وهو طارق ، فاعتنقوا الإسلام ، وكانوا أحد دروعه القوية فى فتح الأندلس فيما بعد ..

وقد بدت عبقرية موسى بن نصير عندما أقام قاعدة لصناعة السفن فى شمال أفريقيا ، تحسّبًا لأى عدوان بحرى جديد من جانب الروم .. وهكذا أصبح هناك أسطول بحرى فى المغرب الغربى يدعم الأسطول العربى فى المشرق العربى .

وبتحقيق هذه الفتوحات والانتصارات تدعم مركز موسى بن نصير .. ومما كان يشق على نفسه أنه كان يود أن يشاهد عبد العزيز بن مروان ، الذى دفعه إلى قيادة الجيش الإسلامى إلى أفريقية ، والذى كان يحبه من أعماق قلبه .. كان يتمنى ابن نصير أن يشهد عبد العزيز ما حققه المسلمون من انتصارات ، ولكن عبد العزيز كان قد رحل إلى جوار ربه الكريم فى سنة ٨٥ هـ ، وبعدها كان موسى يراسل الخليفة الأموى مباشرة لما ارتفع إليه من مكانة فى نفس الخليفة ، بعد تحقيقه أحلام المسلمين ، وإحكامه السيطرة على الشمال الأفريقى كله ..

ولعل أهم أسباب نجاح موسى بن نصير حب جنوده له ، فهو واحد منهم ، لا يتعالى على أحد ، ولا يترفع على مسلم ، إنه يقول لهم فى مسيرة زحفه الساحق :

« أنا رجل كأحدكم ،من رأى منى حسنة فليحمد الله ، وليحصى علىّ مثلها ، ومن رأى منى سيئة فلينكرها ، فإنى أخطئ كما تخطئون ، وأصيب كما تصيبون ، وقد أمر الأمير – أكرمه الله – لكم بعطاياكم ، وتضعيفها ثلاثًا ، فخذوها هنيئًا مريئًا ، ومن كانت له حاجة فليرفعها إلينا ،

وله عندنا قضاؤها على ما عز وهان ، ومع المواساة إن شاء الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله » .

وبلغ من حسن فهمه للأمور والحياة ومتغيراتها ، أنه عهد إلى طارق بن زياد بقيادة جيش طنجة ، وأعطاه حرية الحركة وإعطاء الأوامر ، وأصبح تحت إمرة طارق بعض العرب أنفسهم ..

وقد أثمرت سياسة ابن نصير ثمارها السريعة ، حيث لم يفرق بين عربى وبربرى ،وأتاح الفرصة للجميع فدخلوا فى دين الله أفواجًا ، وبدخولهم الإسلام كان عليهم أن يعرفوا أمور دينهم .. وأمور الدين لا تتيسر إلا بمعرفة ما جاء فى كتاب الله وسنة رسوله .. وهذا الأمر يتطلب معرفة اللغة العربية ..فإذا بهم ينكبُّون على الكتاتيب التى تُحفظ القرآن الكريم .. ويستمعون إلى فقهاء المسلمين ، فاستقامت لهم معرفة العربية بسرعة ،وبمعرفتهم اللغة العربية شعروا بأن لهم كيانًا .. وأن هذه اللغة توحِّد بينهم .. فكانت بداية لإذابة أهل هذه البلاد فى هذا المد الإسلامى الوافد عليهم ..

وإذا بهذا كله يصبح الأرضية التى ينطلقون منها نحو حياة جديدة وحضارة جديدة .. ورؤية جديدة للحياة .

* * *

التطلع إلى الأندلس

عندما استتب الأمر للمسلمين فى المغرب العربى ..كان موسى بن نصير يشعر أن الأيام تمر بسرعة ، وأن العمر يمضى بلا هوادة ، فقد كبرت سنه .. وأخذ يفكر فيما حققه المسلمون من انتصارات عظيمة فى الشرق والغرب على السواء ..

وبدأ البطل العظيم يفكر فى كل هذا ، ويراقب بعين ساهرة ما يدور على أرض الأندلس من صراع رهيب ، وشعور الناس هناك بالظلم الفادح ، وتكالب الحكام على إرهاق الناس بالضرائب .. وحكمهم بالسياط .. راقب كل ما يجرى على أرض الأندلس من أحداث .. مترقبًا الفرصة للدخول إلى هذه الأرض الإسبانية ، وضمها تحت جناح المسلمين .. وطلب من

طارق بن زياد أن يحسن علاقاته مع حاكم سبتة « يوليان » وأن يعرف عن طريقه ما يدور داخل إسبانيا .. وكان يوليان على علاقة بحاكمها « غيطشة » ولكن غيطشة هذا سرعان ما انقلب عليه لوزريق وقتله واحتل عرشه .

ولكن « يوليان » تصور أن دور العرب هو مجرد مساندته بالانتقام من لوزريق .. ولم يكن يدرى أن موسى بن نصير يخطط لانتشار الإسلام فى غرب أوربا .. وأنه أصبح مهتما بتحقيق هذا الحلم بدراسة كل شىء عن إسبانيا : مناخها ..تضاريسها .. مدنها ..أحوال الناس فيها .. أسلم الطُّرق للغزو .

كان منتهى أمل موسى بن نصير أن يحقق هذا الأمل الكبير .. وكان وهو فى القيروان تأتى إليه الأنباء عما يجرى داخل إسبانيا عن طريق قائده طارق ، الذى كان على صلة حميمة بحاكم سبتة .. وعندما تأزمت الأمور بين لوزريق ملك إسبانيا الطاغية وبين يوليان ..لم يكن هناك مفر من لجوء يوليان إلى موسى بن نصير وذهابه إلى القيروان ، وإغرائه المسلمين بالتوجه إلى إسبانيا ، حيث الطبيعة الساحرة والأشجار المورقة ..والأنهار الجارية ، والخيرات الكثيرة .

وأيقن القائد العجوز أن الثمرة أوشكت على السقوط ، وأن الفتح أصبح قاب قوسين أو أدنى .. وأعطى قائده الفذ إشارة البدء فى تنفيذ تحقيق هذا الحلم الكبير .

ولكن موسى بن نصير – كسياسى – ارتسم فى ذهنه العديد من علامات الاستفهام حول يوليان وخشى لعبة ماكرة ، أو يجره لمعرفة ما يدور برأسه .. وأراد فى نفس الوقت أن يتيقن من مدى إخلاص حاكم سبتة للعرب .. فأمر بإرسال حملة .. مجرد حملة صغيرة بقيادة طريف بن مالك البربرى .. ليعبر الممر الفاصل بين المغرب والأندلس ويمتحن بعض حصون العدوّ ، وعبر الطريق بجيشه المكون من مائة فارس وأربعمائة رجل .. واستولى على بعض الحصون بسهولة ويسر ، وغنم غنائم كثيرة ، وعاد ليبشر قائده العظيم ، بأن الأمر لم يكن فيه صعوبة على الإطلاق وأن مقاومة العدو أوهى من خيوط العنكبوت ..

هنا انشرح صدر موسى بن نصير ، وقرر الدخول فى معركة مع الإسبان .. ونشر راية الإسلام فى هذا المكان من غرب أوربا .. وترك أمر القيادة لطارق بن زياد ..

وأخذ موسى بن نصير ، وطارق بن زياد ، وعبد العزيز بن موسى بن نصير يواصلون الزحف ، وتوطيد دعائم الإسلام

فى مختلف أرجاء الأندلس .. التى أصبحت جزءًا من العالم الإسلامى ، وأصبحت مركز إشعاع لحضارة الإسلام ومبادئه ..

واستطاع موسى بن نصير ، أن يدعم الحكم الإسلامى هناك بقدرته الفائقة فى رسم السياسة الداخلية المستنيرة للحكم ، وصك عملة ذهبية ، وأخرى بورنزية للتعامل الاقتصادى .. مما جعل الأمور تستقر فى هذه البلاد ، وكانت سماحة الإسلام مع الأديان الأخرى ، وعدم إرغام أحد على ترك دينه وسيلة لترحيب أهل البلاد بالفاتحين الجدد .. أو على حد تعبير أحد المؤرخين ، وهو يصور الحالة التى صارت عليها إسبانيا أو الأندلس بعد الفتح الإسلامى قوله :

« فى أقل من أربعة عشر شهرًا قضى على مملكة القوط قضاء تامًّا ، وفى عامين فقط وطدت سلطة المسلمين فيما بين البحر المتوسط وجبال البرنية ، ولا يقدم لنا التاريخ مثلاً آخر اجتمعت فيه السرعة والكمال والرسوخ بمثل ما اجتمعت فى هذا الفتح » .

وقد كان يظن فى البداية أن الغزو هو أمر مؤقت فقط ، ولم يتوقع أحد أن يكون استقرار المسلمين دائمًا .. فلما استقر المسلمون ، وفتحت الثغور للتجارة ، وأقيمت المساجد ، أدرك

القوط فداحة الخطب الذى حل بهم ، ولكن اعتدال المسلمين خفف من ألم الهزيمة .

وكان دفع الجزية يضمن الحماية لأقل الناس ، وكان يسمح للورع المتعصب أن يزاول شعائره دون تدخل ، كما يسمح لكل فرد أن يجاهر بآرائه دون خشية المطاردة ، وللأحبار أن يزاولوا شئونهم فى سلام ..

وهكذا استطاع هذا الرجل العظيم أن يحقق أمنية عزيزة اعتزَّ بها المسلمون لعدة قرون ، حين نقل نور الإسلام إلى بلاد لم يكن يخطر ببال أحد أن يصل إليها الإسلام ، وأن ينتشر بين أهلها بسرعة .. وأن تشيد هناك حضارة كانت هى سبب نهضة أوربا كلها ، واستيقاظها من سباتها الطويل ، إلى التقدم والازدهار ، بفضل ما نقلوه من حضارة العرب ، وعلم العرب ، وثقافة العرب .. فانزاح عنها ظلام ران عليها طويلا لتنهض ، وتحاول التعلم مما وصل إليه العرب من آداب وفنون ، وما نقلوه من فلسفة اليونان مضافًا إليه فلسفتهم الإسلامية .. فلم يكن العرب مجرد نقلة التراث اليونانى ولكنهم أضافوا إليه .. وأصبحت الأندلس منارًا للفنون والآداب والعلوم لعدة قرون ، إلى أن زال عنها سلطان الإسلام .. ولهذا السقوط قصة أخرى ..

خاتمة المطاف

تمضى الأيام .. ويأتى أمر من الخليفة الوليد بن عبد الملك إلى موسى بن نصير ، ليحضر هو وطارق بن زياد إلى دمشق .. واحتار موسى بن نصير فى هذا الأمر ، واستمهل رسول الخليفة بعض الوقت حتى يتاح له تأمين فتوحاته .. وعندما اقترب من جبال البرانس ، وقف أمامها والخواطر تتداعى إلى نفسه .. وأحلام طموحه تراود خياله .. إنه يريد أن يعبر جنوب فرنسا ، ثم تكتسح أوربا ليصل إلى دمشق عن طريق فتوحاته الأوربية ..

ولم يكن موسى يعيش أحلام اليقظة .. ولكنه كان يرى أن بقية الدول الأوربية ضعيفة متخلفة .. لا تستطيع أن تصمد

أمام ضربات الجيش الإسلامى المدرب على حمل السلاح ، والذى يمتلئ قلبه بعقيدة التوحيد ..ويعرف أن كل جندى من جنوده يؤمن بما قاله خليفة رسول الله أبو بكر الصديق :

« احرص على الموت ، توهب لك الحياة » .

كما أنه يؤمن كذلك أن طاقات الإنسان لا تحد .. وأن العجز الإنسانى هو حالة من الخوف لو استسلم لها الإنسان توقفت حياته .. ولهذا أبى أن يستسلم لأى ألوان المرض أو العجز .. بل جعل من ساقه العرجاء .. ركيزة يقيم عليها أعلام الإسلام لكن طموحاته تلك لم تجد من الوليد بن عبد الملك الحماس الكافى .. بل أرسل فى استدعائه ، ربما لخشيته أن تتحول هذه الإمبراطورية المترامية الأطراف إلى إمبراطورية يصعب السيطرة عليها والتحكم فيها ..كما أنه كان يرى أن الإسلام ليس فتحًا ، ولكن الغرض هو تثبيت دعائم الإسلام ، وليس مجرد ضم أراض خاضعة لحكمه ..

ويقرر موسى العودة إلى دمشق .. إن الرحلة من الأندلس إلى دمشق رحلة طويلة وشاقة ، ولكن ليس له خيار فى ذلك فليعد .. وليحمل معه من الهدايا ما يشعر الخليفة بعظمة العطاء الذى حققه موسى بن نصير للدولة الأموية .. والأمجاد التى

حققها فى سبيل مَدّ نور الإسلام إلى تلك الأماكن البعيدة جدًّا عن الخلافة ، والتى لم يكن يخطر على بال أحد أنه يمكن للجيوش الإسلامية أن تصل إليها ..

من كان يتصور أن يمتد الفتح الإسلامى ليشمل الشمال الأفريقى كله حتى المغرب الأقصى ، ثم يمتد عبر أوربا نفسها ليحتوى شبه الجزيرة الإيبيرية .. ويواصل زحفه الكاسح حتى جنوب فرنسا .. ولولا المحاذير لعبر أوربا نفسها ووصل إلى دمشق عن طريق أوربا .. !

إنه الآن مجبر على العودة إلى دمشق .. ليس بسبب ما يقوله بعض المؤرخين أن الاستدعاء يرجع إلى خوف الخليفة من أن يستقل موسى بالأندلس ..فهذا شىء لا أعتقد أنه خطر بعقل الخليفة بحال من الأحوال ، لأن الخلافة الأموية كانت فى قمة فتوتها وقوتها ، وما كان لأحد أن يستطيع الخروج عليها ، ولا كان سبب الاستدعاء الخلاف بين موسى وطارق ، فإن موسى هو القائد الأعلى ، وهو المهيمن على الجيش ، وأنه عاتب قائده للخروج على تعاليمه ، وهذا حقه كقائد أعلى للجيش ، يخشى أن تنتهى الانتصارات

بالهزيمة ، فقد تدخل شخصيًا حتى يسد الثغرات التى تركها طارق ، وكانت بإمكانها تحويل الانتصار الإسلامى إلى هزيمة منكرة ..

ولكن أغلب الظن أن الخليفة خشى من طموحات موسى بن نصير الفائقة .. وخشى أن يترك الرجل وطموحاته فيفلت الزمام منه وسط طبيعة لم يعرفها العرب معرفة جيدة .. ووسط اتساع رهيب من الأرض من الصعب السيطرة عليها أمنيًا .

ومن هنا فقد آثر الوليد أن يرسل فى استدعاء موسى وأن يسجد لله شكرًا على ما حققه المسلمون فى عصره من انتصارات كبيرة .. سواء على المستوى الأفريقى حتى غرب أوربا ، أو الفتوحات الإسلامية الهائلة داخل القارة الآسيوية .. على يد قواد عظام من أمثال مسلم بن قتيبة ومحمد بن القاسم ..

قرر موسى العودة .. وقرر أن يكون موكبه موكبًا لم يشهد له التاريخ مثيلا .. عندما يعود إلى دمشق ومعه الهدايا .. ومعه من يمثل هذه الفتوحات الهائلة من ملوك وقادة وأسرى .. وبما يحمل من الذهب والفضة مما أفاء الله به على المسلمين من مغانم فاقت الغنائم التى حصل عليها المسلمون عندما ملكوا خزائن كسرى بعد استيلائهم على إمبراطورية فارس ..

لقد خرج موسى بموكبه الرائع من «أشبيلية» فى ذى الحجة سنة ٩٥ هجرية ، بعد أربع سنوات من الجهاد المرير فى غرب أوربا .. ومعه القائد طارق بن زياد فى طريقه إلى دمشق ..

وعندما اقترب هذا الموكب المهيب من دمشق ، جاءته رسالة من سليمان بن عبد الملك يطلب منه الإبطاء فى السير ، لأن الخليفة كان يعانى المرض .. وكان سليمان يريد أن يكون هذا الموكب بداية لعهده عندما يتولى أمر الخلافة بعد أخيه ..

ولكن موسى أصر على مواصلة سيره ، ووصل دمشق قبل وفاة الوليد بأربعين يومًا .. وقد فرح الوليد حتى إنه برغم مرضه ذهب إلى المسجد ، وخطب الناس وشكر الله عما أفاء به على المسلمين فى عهده من فتوحات .

وقابله الخليفة مقابلة تليق بالخدمات التى قدمها الرجل للإسلام والمسلمين ، وكان دخول هذا الموكب الهائل فى السادس عشر من يناير عام ٧١٥ م .

وقد منحه الخليفة خمسين ألف دينار ، كما فرض لأبنائه وأتباعه ما يعبر به عن امتنانه من هذا الإنسان العظيم .

وكان هذا الاحتفال المهيب نهاية لرحلة المطاف لإنسان

عظيم .. أتاحت له مواهبه وإخلاصه لدينه وتحديه الباهر أن يحقق ما يشبه المستحيل ..

وتولى سليمان بن عبد الملك الخلافة (٩٦ هـ) ولأمر يجهله المؤرخون ، قرر ألا يعود موسى بن نصير مرة ثانية للمغرب أو الأندلس .. ربما لأنه لم يطع أمره عندما أرسل له رسالة يطلب فيها السير ببطء نحو دمشق حتى يكون له شرف استقبال عهده بدوى الانتصارات وبريق المجد ! وربما لأن موسى قد اقترب سنه من الثمانين فأنهكته الحروب .. والتفكير ليل نهار فى أمور الشمال الأفريقى ..

ولكن مع ذلك لم يسئ الخليفة معاملته .. بل إن الكثير من المؤرخين يتحدثون عن أيام موسى الأخيرة ، وكيف اصطحبه أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك معه لرحلة الحج .

ويروى : أن موسى بعد أن أدى الفريضة تداعى إلى ذهنه خاطر ألح عليه ، وهو أنه عندما فتح الأندلس دخل عليه رجل يدعى أنه على علم بمعرفة النجوم .. وأن هذا المنجم أخبره بأنه لن يموت على أرض الأندلس ، ولكنه سيموت فى المشرق .. يومها طرده موسى بن نصير ..

وها هو ذا يشعر بضعف جسده .. وأنه عاد إلى الأرض

التى ولد عليها .. وكانت مهد طفولته .. ومرتع أحلامه ، ومهوى خيالاته وطموحاته .. إنه قد أحس باقتراب الأجل ..

وهمس لأحد أصدقائه بأنه سوف يموت عما قريب إنسان حقق الكثير فى المشرق والمغرب ، ويعرفه أهل المشرق والمغرب .. يومها ظن صاحبه أنه يقصد الخليفة .. ولكن بعد أيام رحل موسى بن نصير إلى رحاب الله ..

وردد صاحبه كثيرًا : البقاء لله .. لا حول ولا قوة إلا بالله ..

عادت الروح الطاهرة إلى بارئها .. ودفن موسى بن نصير فى مهبط رأسه « وادى القرى » .. ووسّد الجسد .. وصعدت الروح إلى جوار رب كريم .. وبقيت أمجاده نور هداية لكل من يريد أن يضحى فى سبيل العقيدة ولكل من أصيب فى بدنه أو أعضائه لكنه تحدى إصابته فحقق ما لم يحققه الأصحاء .. وهذا أبقى وأخلد وصدق الله العظيم : ﴿فأمَّا الزَّبدُ فيذْهبُ جفاءً وأمَّا ما ينفَع النَّاس فيمْكُث فى الأرض﴾

* * *

أهم المراجع

- **فتوح البلدان**
  - البلاذرى
- **قيام دولة المرابطين**
  - حسن محمود
- **المغرب الكبير (العصر الإسلامى)**
  - السيد عبد العزيز سالم
- **موسى بن نصير - مؤسس المغرب العربى**
  - د . إبراهيم أحمد العدوى
- **مع الأبطال**
  - د . محمد رجب البيومى
- **الصراع بين العرب وأوربـا من ظهور الإسلام إلى انتهاء الحروب الصليبية**
  - د . عبد العظيم رمضان

الفهرست

الموضوع	صفحة
حياته	٦
فى الشمال الأفريقى	١٢
التطلع إلى الأندلس	١٨
خاتمة المطـاف	٢٣

رقم الإيداع	١٩٩٦/٨٦٤٧
الترقيم الدولى	ISBN 977-02-5300-6

٧/٩٥/١٤٩

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)